تفريغ

قواعد لتحقيق التوبة

جُمِعَت القواعد من كتب ابن القيم رحمه الله

تقديم الشيخ: عقيل بن سالم الشمري

ملاحظات:

-الشيخ لم يراجع أو يشرف على التفريغ، إنما هو اجتهاد شخصي.

-مصدر الدورة القناة الرسمية للشيخ على التلقرام:

https://t.me/tadabr2

القاعدة الأولى من قواعد التوبة:

التوبة أول المنازل وآخرها وأوسطها

التوبة هي أول المنازل وهي آخرها وهي أوسطها، فمطلوبة من الإنسان حينما يريد أن يتوجه إلى الله أن يتوب إليه، ومطلوب منه يوم يموت أن يموت تائبًا، ومطلوب منه أن يعيش حياته تائبًا إلى الله، فشملت التوبة جميع مراحل عمر الإنسان، هذه القاعدة ما أخوذة من قوله تعالى:(وتوبوا إلى الله جميعًا أيه المؤمنون)

فهم مؤمنون وطلب الله منهم التوبة.

وأيضًا مأخوذة من قوله تعالى:(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)

فقسم الله الناس إلى نوعين: تائب وظالم، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة، مع أنه وصل إلى منزلة النبوة فأصبحت التوبة أول المنازل وآخرها والإنسان يعيش حياته عليها.

القاعدة الثانية من قواعد التوبة

شروط التوبة، وإضافة ابن القيم

تتعلق القاعدة بشروط التوبة وهناك إضافة لابن القيم عليها، فشروط التوبة ثلاثة

الشرط الأول: الندم، لأن من لم يندم فهذا دليل رضا، وهذا ينقص التوبة.

الشرط الثاني: الإقلاع عن الذنب، إذ لا يتصور توبة بدون إقلاع عن الذنب .

الشرط الثالث: العزم على ألا يعود لهذا الذنب في مستقبل أيامه.

وابن القيم رحمه الله يضيف إضافة أخرى، وهي العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل ما أمره الله به، ولهذا تعتبر التوبة عند ابن القيم رحمه الله من أصعب المنازل، حتى قال: فما أصعب التوبة على الحقيقة و ما أسهلها على اللسان.

القاعدة الثالثة من قواعد التوبة

حقيقة التوبة تعظيم الجناية

فما حقيقة التوبة؟

ومتى يعرف الإنسان أن توبته حقيقية؟

علماء السلوك يقولون حقيقة التوبة تعظيم الجناية، فمتى ما كانت الجناية التي فعلتها والأمر الذي خالفت به أمر الله وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم في نفسك عظيما واستعظمته في نفسك، فهذا دليل على حقيقة التوبة.

وتعظيم الجناية يكون بثلاثة أمور:

أولًا: تعظيم الآمر الذي خالفت أمره أنت، وهو الله جل جلاله أو النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: تعظيم الأمر الذي أديته، فما أعظم الغيبة، وما أعظم العقوق، وما أعظم الفواحش، وما أعظم انتهاك الحرمات، وما أعظم الظلم، أن يبقى الأمر في نفسك عظيمًا مجرمًا.

ثالثًا: التصديق بالجزاء، أي بأن تصدق الجزاء الذي رتبه الله سبحانه وتعالى على هذه العقوبة.

القاعدة الرابعة من قواعد التوبة

من موجبات التوبة كسرة في القلب

هذه الكسرة الله يحبها، ويحب أن يراها في قلب عبده، ويحب آثار هذه الكسرة أن تغشو هذا العبد.

وذلك كحال عبد آبق هارب من سيده، وقد علم هذا العبد المسكين أنه لاغنى له عن سيده، وأنه لا مهرب عنه، وأن سيده هو متولي نعمته، وقد أوثق هذا العبد وأحضر أمام سيده، فكيف يكون شعور العبد إذا رأى نظرة سيده له؟ سيغشاه من الذل والانكسار والحياء شعور السيد يرضى عنه إذا رآه عليه، لأن سيده به رحيم،

فكيف إذا كان السيد هو أرحم الراحمين وهو الله جل جلاله؟ وكيف إذا كان الانكسار هذا في قلب العبد المؤمن نتيجة لذنبه الذي فعله والله سبحانه وتعالى لا يريده، والله يغضب من هذا الذنب، فكيف تكون هذه الكسرة؟

هذه الكسرة شعور الله يحبه، وهي من موجبات التوبة، بل هي التي ترفع العبد عند الله.

القاعدة الخامسة من قواعد التوبة

المذنب عليه أن يطالع خمسة أمور

أولًا :عليه أن يطالع الوعد والوعيد الذي توعده الله به وجاء في نصوص الوحيين على هذه الجريمة التي أنت فعلتها، فهذا يحدث له خوفًا وارتعادًا من أن تنطبق هذه الجزاءات عليك، إن لم تنطبق عليك في الدنيا تنطبق عليك في الآخرة.

والجهة الثانية: عليه أن يطالع أمر الله ونهيه، وأنه قد خالف أمر الله، وهذا يورث عند العبد اعترافًا، يعترف بأنه مذنب، و يعترف أنه مخطئ، و يعترف أنه إنما فعل ذلك نتيجة لجهله.

الجهة الثالثة: المذنب عليه أن ينظر إلى تمكين الله له، وأن الله مكنه من فعل هذا الذنب، والسبب في ذلك أن الله تخلى عنه، لم يعصمه لم يوفقه، فهذا دليل على هوانك عند الله في تلك اللحظة التي تخلى الله عنك فيها، فيورثه ذلك انكسارًا وحياءً واعترافًا بعزة الله، واعترافًا بأن العصمة بيد الله، واعترافًا بفضل الله إذا سترك.

الجهة الرابعة: عليه أن ينظر إلى مصدر الجناية، فما الذي أوقعك في هذا الذنب؟ إنما هو نفسك الظالمة الجاهلة.

النظر الخامس: عليه أن ينظر إلى الآمر له الذي زين له هذه المعصية في عينك وفي قلبك، وهو إبليس عدونا الأول الذي قال الله وأمرنا الله أن نتخذه عدوًا، وهذا يورث العبد كمال الاحتراز منه، ويورث العبد التحفظ، ويورث الحذر من عدونا ومن وسائله.

القاعدة السادسة من قواعد التوبة

ما سر فرح الله بتوبة عبده.

خلاصة كلام ابن القيم رحمه الله في هذا الباب، أن الله سبحانه وتعالى فضل الإنسان وسخر له كل شيء، وفضل المؤمن تحديدًا، وجعله خير البرية، والرب له عدوٌ، الله يبغضه أشد البغض، وهذا العدو اختطف العبد المؤمن، وأوقعه بالمعصية و الفاحشة والرذيلة، وما يغضب الله، وما يبعده عن الله، وما يسبب انتقام الله وغضبه، في هذه الأثناء العبد تذكر سيده وتذكر الله، وتذكر بره وكرمه ولطفه وستره وحلمه، وتذكر الشوق إليه ولذة لقائه والأنس به، فترك العدو وترك هذه المعصية، وتاب وأناب ورجع بين يدي سيده، وخر له راكعًا منيبًا معترفًا بخطئه، فأبدر الله هذا العبد بدل الغضب عليه رضا، وبدل السخط عليه محبة، وأغدق الله عليه من جوده ومن كرمه، ولهذا الله يفرح به، لأنه خلع عليه من آثار أسماء الله وصفاته ما يليق بالله، فالله جواد كريم يحب أن يرى أثر الجود والكرم، وهذا لا يكون إلا للعبد التائب، ولهذا الله يفرح بتوبة عبده.

القاعدة السابعة من قواعد التوبة

في التوبة عبودية المراغمة

المراغمة هي إلاغاظة، إغاظة الأعداء، فالله له أعداء هم الكفار والشياطين، والله يحب من يغيظ هؤلاء الأعداء، ولهذا قال الله:(ليغيظ بهم الكفار)

فأحب العباد إلى الله من يغيظ أعداءه، وأعد أعداء الله الشيطان الرجيم، ولا يغيظ الشيطان شيء مثل التوبة ، ولهذا الله يحبها، ففي التوبة عبودية أخرى هي عبودية المراغمة ، على الإنسان التائب أن يستشعرها وأن يعلم أنه في هذه اللحظة أفرح سيده وأغضب عدوه، ولهذا من تاب فليعلم أنه أغاظ عدوه وأفرح ربه ، وهذه عبودية أخرى.

القاعدة الثامنة من قواعد التوبة

استكثار الطاعات ذنب يستحق التوبة

حسناتك كلما عظمت في عينك وقلبك ونفسك كلما صغرت عند الله، وكلما صغرت في عينك وقلبك عظمت عند الله ووقعت عند الله الموقع الحسن.

هذه القاعدة تدل على أن من عرف الله بأسمائه وصفاته حقيقة المعرفة تلاشت في عينه حسناته، فما حسناتك أمام مقام الله! وتدل أيضا أنه كلما اقترب الإنسان من ربه استصغر أعماله في جناب الله، لأن مقام الله عظيم، والله يستحق الطاعات كلها، ويستحق أن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يطاع فلا يعصى، فإذا ما وصل الإنسان إلى هذا إذًا كيف تستكثر بعض الطاعات، أو بعض الركعات أو بعض الأعمال أو بعض الأموال أو بعض الصدقات التي عملتها بين يدي إله عظيم.

القاعدة التاسعة من قواعد التوبة:

استقلال الذنوب (جرأة) تستحق التوبة.

كلما صغرت ذنوبك في عينك عظمت عند الله، وكلما عظمت ذنوبك في عينك صغرت عند الله.

من لم يعرف الله حق المعرفة لابد وأن يستقل الذنوب، ولابد أن يتهاون في الذنوب ولابد أن يتجاسر على الذنوب، لأنه لم يعلم الله حقيقة العلم، ولم يتعرف على أسماء الله ولا على صفاته، ولهذا يرى أن ذنوبه قليلة يستقلها.

استقلال الذنوب معصية هي بحد ذاتها، تستحق وتستوجب أن يتوب الإنسان منها كما تستحق الذنوب أن يتاب منها، فاستقلال الذنوب عمل قلبي مرض قلبي معصية قلبية يتاب منها ويتاب من الذنوب التي تمارسها بالجوارح، فالإنسان قد يمارس الذنوب بجوارحه وقلبه أيضًا متلبس بذنب آخر، وهو استقلال هذه الذنوب أنها هينة، يرى ذنوب كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار.

القاعدة العاشرة من قواعد التوبة:

المبادرة للتوبة (فرض) وتأخيرها (ذنب آخر)

هذه القاعدة قال عنها ابن القيم رحمه الله:"وقل أن تخطر هذه ببال التائب"

وذلك لأن الإنسان التائب أحيانًا يظن أنه بتوبته أدى ماعليه، بينما هو في حقيقة الأمر مطلوب منه أمران:

١-مطلوب منه أولًا أن يتوب من الذنوب التي يفعلها بجوارحه.

٢- مطلوب منه أن يتوب عن تأخيره التوبة.

فلماذا تؤخر التوبة وهي واجبة؟ ولماذا تؤخر التوبة والله يستحقها من حينها؟

فتأخيرك ذنب آخر تأثم عليه، فعلى الإنسان التائب أن يتوب من الذنب، وأن يتوب من تأخير التوبة.

القاعدة الحادية عشرة من قواعد التوبة

توبة العبد بين توبتين: توبة قبلها، وتوبة بعدها .

هذه القاعده مأخوذة من قوله تعالى: (ثم تاب عليهم ليتوبوا)

فبدأ أولاً بتوبة الله، ثم ثنى بتوبة العبد، وتأتي بعدها قبول الله لتوبة عبده، فأصبحت توبة العبد محفوفة بتوبتين قبلها وبعدها، وكلاهما لله.

فالأولى: أن يتوب الله، بمعنى أن يوفق الله عبده للتوبة، أن يهديه للتوبة، أن يهديه ويلهمه ألفاظ التوبة، أن يرزقه الضراعة بين يديه ليتوب.

ثم يوفق العبد فيفعل العبد توبته وينيب إلى الله.

ثم تأتي التوبة الثالثة: وهي أن يتقبل الله، أن يمتن الله، أن يحسن الله، فيقبل توبة هذا العبد الذي أعرض طوال عمره.

فأصبحت توبة العبد بين توبتين، فالله تواب، والعبد تواب:

-فالعبد تواب بمعنى: أنه رجّاء

-والله تواب بمعنى: أنه موفق لعبده و ممتن على عبده بقبول التوبة.

القاعدة الثانية عشرة من قواعد التوبة

صغائر الذنوب قد يلتحق بها ما يجعلها عظيمة خطيرة

إن صغائر الذنوب قد يلتحق بها ما يجعلها عظيمة وخطيرة عند الله، إذا اقترن بهذه الصغائر قلة الحياء من الله، وجرأة على الله، واستخفاف بأوامره، وعدم مبالاة بنواهيه، واستهانه بمقامه، واحتقار لشرعه، فهذه الأشياء متى ما احتفت بشيء من الذنوب ولو كان هذا الذنب صغيرًا من صغائر الذنوب؛ فإنه يقع عند الله موقعًا خطيرًا، وذلك لهذه الأمور التي احتفت به.

فإن العبد إذا خالف سيده، فرق بين أن يخالفه وبين أن يستهين بأوامره، وإذا استهان العبده بأوامر سيده كان ذلك أشد غضبًا عند السيد على هذا العبد، لأنه لم يكتف بمخالفة الأمر، إنما جمع جريمة أخرى وهي الاستخفاف بأوامر السيد، ولهذا على الإنسان المؤمن أن يراعي قلبه في هذه الناحية فلا يستخف بأوامر الله

القاعدة الثالثة عشرة من قواعد التوبة:

التوبة العامة ضرورة .

هذه القاعدة فرع عما ذكره ابن تيمية رحمه الله من التوبة تنقسم إلى نوعين:

التوبة الخاصة:

أن يتوب الإنسان من ذنب معين خاص هو يعرفه يعترف فيه بين يدي سيده سبحانه وتعالى، ويعزم على ألا يعود إليه.

والتوبة الثانية التوبة عامة:

قال عنها ابن تيمية: الناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة، مع حاجاتهم إليها).

التوبة العامة ضرورة، بين ابن تيمة أن الإنسان إذا تاب يخفف عنه من عقوبات الذنوب والمعاصي، إلا صاحب التوبة العامة فإنه يرتفع عنه العذاب في العذاب في الدنيا والاخرة، وذلك لأن التوبة العامة تقتضي أن يعقد الإنسان العزم على الندم

والاستغفار عن ما مضى من ذنوبه، وأن يعقد العزم والإصرار على أن يلتزم بأوامر الله في مستقبل حياته، فأصبحت التوبة العامة تشمل ماضي الإنسان ومستقبله، أي أنها هي حياته كلها، وهذا هو كونها ضروره.

القاعدة الرابعة عشرة من قواعد التوبة

علل التوبة:

١-التوبة لأجل غرض من الأغراض .

تكلم ابن القيم رحمه الله عن علل التوبة، وجعل من علل للتوبة- يعني الأشياء التي تنقص التوبة – أن يتوب الإنسان لأجل غرض من الأغراض، مثلاً:

أن يتوب الإنسان لأنه يرى أن هذا الذنب لايليق به، يرى أنه هو أرفع من هذه الذنوب، أو أن يتوب الإنسان خوفًا من الفضيحة عند الناس، أو أن يتوب الإنسان لأجل أن هذا الذنب يسقط مكانته بين الناس، أو أن يتوب الإنسان لأجل أن هذا الذنب لا يليق به، أو أنه يتنافى مع مكانته.

فيرى ابن القيم أن كل هذه الأشياء إنما تخدش التوبة، وذلك لأن التوبة ينبغي أن تكون بصورة واحدة فقط، وهي:

أن يتوب الإنسان خوفًا من الله، إجلالًا لله، خوفًا من طرد الله له، خوفًا من إبعاد الله له، أن يتوب الإنسان خشية من سقوط منزلته عند الله، أن يتوب الإنسان خوفًا من أن الله يحتجب عنه يوم القيامة فلا ينظر إليه، فإذا تاب الإنسان لأجل ذلك، كانت توبته شرعية صحيحة صادقة، وماعدا ذلك فإنها توبة مدخولة.

من علل التوبة:

٢-ضعف العزيمة والتفات القلب للذنب.

يرى ابن القيم رحمه الله أن من علل التوبة ومما يخدشها ضعف العزيمة، وعلامة ذلك التفات القلب، أن القلب يلتفت أحيانا ويشتاق أحيانا ويهيج أحيانا إلى ما كان عليه من الذنوب والخطايا، فلا زال في القلب بقية من شوقٍ إلى ذلك الذنب.

وهذا يدل على أن الشرط الثالث وهو: العزم على أن لا يعود أنه كان ضعيفًا، ولهذا من صلاح التوبة أن يعزم الإنسان عزمًا جازمًا على عدم العودة، بحيث أنه يكره ذلك الذنب، ويكره تاريخه ولذته ومواقعه ومشاهدته وحاله.

من علل التوبة:

٣–طمأنينته بالتوبة وركونه لها .

من علل التوبة طمأنينته بالتوبة وركونه إليها، فيرى التائب إذا كانت توبته مدخولة معلولة ناقصة، يرى أنه قد أدى ما عليه بالتوبة، وأنه قد اطمأن إليها، وأنه قد أعطيها منشورًا بالأمان، وأنه قد حقق ما عليه، وأنه قد أتى بالتوبة على أكمل وجوه، وأنه قد غفر له وهذا الاطمئنان، إنما هو دليل على خلل بالتوبة.

إذ التوبة الصادقة يتوبها الإنسان ومع هذا لا يزال خائفًا من أن الله لعله أن لا يتقبل توبته، فيعيش الإنسان بين الرجاء وبين الخوف.

من علل التوبة:

٤–استمرار الغفلة.

أيضًا يرى ابن القيم رحمه الله أن هناك علة رابعة تخدش في التوبة، وهي استمرار الغفلة، بمعنى أن الإنسان لا يحدث بعد توبته تغير في أعماله الصالحة، فلازال في غفلته، ولا زالت عينه على جمودها، ولا زالت جوارحه على كسلها، ولا زال لسانه على فتوره عن ذكر الله، ولم تحدث له تلك التوبة تغيرًا في الأعمال.

فيرى أن هذا دليل على أن التوبة مدخولة، إذ التوبة لو كانت صادقة صالحة لغيرت تلك الجوارح إلى استبدال ما كانت عليه من ماضيها.